

مَدِين

عناصر الموضوع

٢٧٠	التعريف بمدين
٢٧٨	ذكر مدين في القرآن الكريم
٢٧٩	رسول الله إلى مدين ورسائله
٢٨٧	موقف مدين من رسولهم عليه السلام
٢٩٣	نعم الله على مدين وموقفهم منها
٢٩٦	عاقبة قوم مدين
٣٠١	اقتران مدين وثمود في القرآن
٣٠٤	موسى عليه السلام في مدين
٣١٤	الدروس المستفادة من قصة مدين

التعريف بمدين

أولاً: المكان:

اتفق المفسرون على أن مدين التي ذكرت في القرآن الكريم هي: اسمٌ لقوم شعيب عليه السلام، وهم قبيلة من العرب، وكانوا يسكنون في شمال غرب الجزيرة العربية وجنوبي الشام، بالقرب من مدينة معان، وتبوك، وبحر القلزم (الأحمر حالياً)، وأن الله تعالى أرسل إليهم شعيباً عليه السلام، وهم من بني مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام على ما ذكره جمهور المفسرين والمؤرخين^(١).

ولكن اختلف المفسرون وغيرهم من الجغرافيين والمؤرخين في تحديد الموقع الجغرافي لـ (مدين) على ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب الإمام ابن كثير وابن عاشور وبعض المفسرين إلى أن مدين مدينة تقع بالقرب من مدينة معان في شرقي الأردن، من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، وقريباً من بحيرة قوم لوط^(٢).

ومدينة معان حالياً هي: مدينة في المملكة الأردنية الهاشمية، تقع جنوب العاصمة عمان، وتبعد عنها بحوالي (٢١٦) كيلومتراً، وهي أكبر محافظات الأردن مساحة، وأول منطقة دخلها الإسلام في بلاد الشام^(٣).

القول الثاني: إن مدين تقع شمال خليج العقبة في بلاد فلسطين في قرية تسمى: (كفر مند)، وهي قرية عربية فلسطينية، تقع في الجليل الأسفل، وتبعد (١٦) كيلومتراً شمال غربي الناصرة المحتلة من قبل الصهاينة^(٤).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦٥٢/١٨، التكت والعيون، الماوردي ٤٩٤/٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٥٠٩/٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥٧/٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٠١/٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤٠/٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٠١/٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤٠/٨، معجم البلدان، ياقوت الحموي ٧٧/٥، الإشارات إلى معرفة الزيارات، الهروي ص ٨١، آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني ص ٢٤٩، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، القطيعي ١٢٤٦/٣، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقرئ ٣٤٥/١.

(٣) انظر: معجم البلدان، ياقوت ١٥٣/٥، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي ص ٣٠٠.

(٤) انظر: معجم البلدان ٤٧١/٤، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٣٣١/١٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٤، التفسير المنير، الزحيلي ٨٣/٢٠.

وذلك وفقا لما ذكره المؤرخ الشهير ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان تحت اسم «كفر مندا»، والذي مر بالمكان سنة (١٢٣٠ م)، حيث ذكر أنه يوجد في القرية بعض الدلائل التي تشير لذلك، وأهمها البئر الموجودة في ساحة القرية، وقبر بنات شعيب، ولكن يرجح الحموي أن تكون مدين: قرية على بحر القلزم بمحاذاة تبوك^(١).

القول الثالث: ذهب الجغرافيون المسلمون في تحديد بلاد مدين بوضوح وبلا اختلاف بينهم، وكذلك جمهور المؤرخين إلى أن: مدين تقع في شمال غرب الجزيرة العربية بين تبوك وبحر القلزم (البحر الأحمر)، على بعد (١٣٢) كيلاً من تبوك، مما يلي جهة الشام قريباً من مدينة معان وخليج العقبة، من أطراف الشام، وهي كذلك قريبة من بحيرة قوم لوط عليه السلام^(٢).

وتعرف مدين اليوم باسم: (البدع)، وهي بلدة بين تبوك وساحل البحر الأحمر على بعد (١٣٢) كيلاً غرب تبوك، وشرق رأس الشيخ حميد - على البحر - بمسافة (٧٠) كيلاً، وهي تابعة لمنطقة تبوك التي تقع شمال غرب المملكة العربية السعودية^(٣).

ومن خلال الاطلاع والبحث عن موقع مدينة مدين عند المفسرين والجغرافيين القدماء والمعاصرين يمكن القول بأن مدين على الصحيح: كانت تمثل إقليماً كبيراً وواسعاً، وكانت تقع في شمال غرب الجزيرة العربية بين تبوك والبحر الأحمر، على بعد (١٣٢) كيلاً غرب تبوك، وكانت عاصمتها ومركزها الرئيس في مدينة البدع السعودية حالياً، وكان لها منفذ بحري على البحر الأحمر، وكانت ممتدة إلى معان في الأردن، وبئر السبع وكفر مندا في فلسطين، وكانت في فترات ازدهارها تصل إلى طور سيناء في حدود مصر.

ويؤيد هذا ما ترجح لدى الجغرافيين وعلماء الآثار المعاصرين: أن أرض مدين كان مركزها في بلدة «البدع» بين تبوك والساحل، وهي في واد بين الجبال، ويسمى واديها: «عفال»، وأنها كانت ممتدة في أصقاع واسعة، قد تصل إلى معان في شرقي الأردن مما يلي

(١) انظر: معجم البلدان ٤/ ٤٧١، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبدالعزيز بن صالح ص ١٣٥، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، جواد علي ١/ ٤٥٥، دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران ص ١٧١.

(٢) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٤/ ٤٧١، آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا القزويني ص ٢٤٩، المعالم الأثيرة في السنة والسير، محمد حسن شراب ص ٢٤٣، أطلس القرآن، شوقي أبو خليل ص ٧١.

(٣) انظر: معجم المعالم الجغرافية في السيرة، عاتق البلادي ص ٢٨٤، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سامي الملغوث ص ١٣٩.

ناحية الحجاز^(١).

ومما يؤيد ذلك أيضا أن (مغاير شعيب) وآثارهم وبيوتهم وقبورهم تقع حاليا في محافظة البدع، وهي إحدى محافظات منطقة تبوك السعودية، وتبعد عن تبوك (١٣٢) كيلا إلى الشمال الغربي منها^(٢).

ثانياً: التسمية:

سمى الله سبحانه وتعالى قوم شعيب عليه السلام باسمين الأول منهما: وهو مدين، والآخر بأصحاب الأيكة كما يأتي على هذا التفصيل:

أولاً: سمي الله سبحانه وتعالى قوم شعيب عليه السلام بمدين في مواضع في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَالْمَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَالْمَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤].

وقوله عز وجل: ﴿وَالْمَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَقْنُوتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

بالإضافة إلى تسمية مدين في قصة موسى عليه السلام من دون ذكر النبي شعيب عليه السلام: قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا سَئَلْنَا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُؤُنِي﴾ [طه: ٤٠].

وقال تقدست أسماؤه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

وقال عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّكَاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

وقال جل شأنه لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥].

(١) انظر: المعالم الأثرية في السنة والسيرة، محمد حسن شراب ص ٢٤٣، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق البلادي ص ٢٨٤.

(٢) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي ٧٧/٥، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقرئ ص ٣٤٥/١.

وفي تسمية قوم شعيب بمدین قولان:

أحدهما: لأنهم بنو مدین بن إبراهيم الخلیل علیه السلام، فقیل مدین، والمراد بنو مدین، كما یقال مضر والمراد بنو مضر.

الثاني: أن مدین اسم مدینتهم، فنسبوا إليها، ثم اقتصر على اسم المدینة تخفیفاً، وعلى اعتبار أنها اسم مدینة فهل هو اسم أعجمي أو عربي، فيه وجهان: أحدهما: أنه اسم أعجمي، والثاني: أنه اسم عربي، وهل هو اسم مشتق أو جامد، فقد ذكر المفسرون أنه اسم مشتق، واختلفوا في مادة اشتقاقه على وجهين: أحدهما: أنه من قولهم مدن بالمكان، إذا أقام فيه، والياء زائدة، وهذا قول من زعم أنه اسم مدینة، والثاني: أنه مشتق من قولهم دینت، أي ملكت والمیم زائدة، وهذا قول من زعم أنه اسم رجل^(١).

وأما شعيب فتصغیر شعب، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه الطريق في الجبل، والثاني: أنه القبيلة العظيمة، والثالث: أنه مأخوذ من شعب الإناء المكسور^(٢).

ثانياً: سمى الله سبحانه وتعالى قوم شعيب علیه السلام بأصحاب الأيكة في عدة مواضع من كتابه فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ أَحْصَبُ الْأَيْكَةِ لَظُلُمِينَ﴾ [الحجر: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَحْصَبُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٧٦-١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ﴾ [١٢-١٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَاحْصَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُجٍّ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَنَّ وَعِيدٌ﴾ [ق: ١٤].

والأيكة عند أهل اللغة هي: الشجر الكثير الملتف، وتسمى أيضا الغيضة، وجمعها أيك، وكل شجر ملتف فهو عند العرب أيكة، وقيل: هي الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر^(٣).

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢٤٣/٧، النكت والعيون، الماوردي ٤٩٤/٢، معالم التنزيل، البغوي ٢١٤/٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٢٦/٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٣١٣/١٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦١/١٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٥٤/١٢، الكشف والبيان، الثعلبي ٢٤٣/٧، معالم التنزيل، البغوي ٢١٤/٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٢٦/٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٣١٣/١٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٤٧/٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦١/١٠.

(٣) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٣٢٠، مقاييس اللغة، ابن فارس ١٦٥/١، لسان العرب، ابن منظور ٣٩٤/١٠.

ولكن تسمية قوم شعيب عليه السلام بأصحاب الأيكة محل خلاف بين المفسرين على أقوال:

القول الأول: ذهب أكثر المفسرين على أن أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام. القول الثاني: ذكر بعض المفسرين عن قتادة: إن شعيباً عليه السلام أرسل مرتين إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة، فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة، وأما أهل مدين فأخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل صيحة فهلكوا جميعاً^(١).

القول الثالث: هناك من المفسرين من يجعل أصحاب الأيكة فريقاً من قوم شعيب غير أهل مدين: فأهل مدين عندهم هم سكان الحاضرة، وأصحاب الأيكة هم باديتهم، وقيل: من ساحل البحر إلى مدين، وكان شعيب رسولاً إليهم جميعاً، وفيهم قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) [الشعراء: ١٧٦-١٧٨]. وفي آية أخرى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨) فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ وَلِيْنَاهُمْ لِيَوْمِ مِيقَاتِهِ (٧٩) [الحجر: ٧٨-٧٩].^(٢)

قال الإمام ابن كثير: «وأصحاب الأيكة: هم أهل مدين على الصحيح،، والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهما أمة واحدة»^(٣).

وقد كان نبي الله شعيب عليه السلام من أنفسهم، وإنما لم يقل هاهنا: أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجر كثير ملتف، كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾، لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فقطع نسب الأخوة بينهم، للمعنى الذي نسبوا إليه من عبادة الأيكة، وإن كان أخاهم نسباً، وبعض المفسرين لم يفتن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم^(٤).

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤ / ٢٦٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٤٢٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨٥ / ٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧ / ١٢٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٣ / ٥٠، النكت والعيون، الماوردي ٣ / ١٦٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٤ / ٢٦٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢ / ٤٢٩، البحر المحيط، أبو حيان ٥ / ١٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩ / ٨٥، لباب التأويل، الخازن ٢ / ٢٢٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤ / ٧١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦ / ١٤٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩ / ٣٩٠، النكت والعيون، الماوردي ٣ / ١٦٨، مفاتيح الغيب، الرازي

وأما موقع الأيكة ومكانها الجغرافي هو ضمن موقع مدين، وعلى وجه التحديد يمكن الاستئناس بما ذكره علامة الجزيرة في التاريخ حمد الجاسر في كتابه: في شمال غربي الجزيرة: « أن الأيكة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي قبل تبوك التي غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم في آخر غزواته، وأهل تبوك يقولون ذلك ويعرفونه، ولم أجد هذا في كتب التفسير، بل يقولون الأيكة الغيضة الملتفة بالأشجار، والجمع أيك، والمراد بأصحاب الأيكة أهل مدين، قلت: ومدين وتبوك متجاورتان، وأقول: لا يزال يطلق اسم الأيكة على واد من روافد عفال في المنطقة المعروفة ببلاد مدين، والتي فيها مغاير شعيب عليه السلام ^(١) ».

ثالثاً: الزمان:

لقد بين القرآن الكريم الزمن الذي كانت فيه مدين وعاش فيه النبي شعيب عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

والمراد بالبعد في الآية هو: بعد الزمن والمكان والنسب، فزمن لوط عليه السلام غير بعيد من زمن شعيب عليه السلام، وكان مدين بن إبراهيم عليه السلام وهو جد قبيلة شعيب المسماة باسمه، وقد ذكر بعض المفسرين أن مدين كان متزوجاً بابنة لوط عليه السلام ^(٢)، وقيل: إن المراد بالبعد هو أنهم غير بعيدين في الصفات والأفعال المستقبحات، من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية، بأنواع الحيل والشبهات، والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً، ولا مكاناً، ولا صفات ^(٣).

١٩/١٥٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/٧١.

(١) انظر: أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، سامي الملقوث ص ١٤١.

(٢) ذكر جمهور المؤرخين والمفسرين أن شعبياً يتصل نسبه بمدين بن إبراهيم الخليل، ولا يعني ذلك أن لإبراهيم ولدان فقط وهو إسماعيل وإسحاق فقط، إذ لا يوجد دليل شرعي يحصر أبناء إبراهيم في اثنين.

انظر: المستظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي ١/٣٢٤، البداية والنهاية، ابن كثير ١/٤٢٨، جامع البيان، الطبري ١٤/٣٤٥، النكت والعيون، الماوردي ٢/٤٩٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/٣٨٧، الكشف، الزمخشري ٢/١٢٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/٤٢٦، البحر المحيط، أبو حيان ٥/١٠٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/٤٠١ فتح القدير، الشوكاني ٢/٥٨٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/٣٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٢٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/٥٨٩، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/٢٦٢، التفسير المنير، الزحيلي ٨/٢٨٨.

ويعتقد بعض المفسرين أن شعبيًا عليه السلام قد عاش بعد إبراهيم الخليل، وبعد يوسف عليهما السلام^(١)، قال ابن كثير: «كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٌ مِنْكُمْ بِعِيدٍ﴾»، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة، كما ذكره غير واحد^(٢).

رابعًا: تاريخ مدين:

يعتقد بعض علماء الآثار المعاصرين أن آثار بلدة قرية البدع التي تقع في شمال تبوك ترجع إلى قوم مدين، وأن مدين كانت معاصرة لعهد موسى عليه السلام، ويرون في هذا دليلًا على قدم وجودها وإمكان نسبتها إلى ما قبل القرن الثالث عشر ق. م على أقل تقدير عندهم.

ويعتقدون أن النبي شعبيًا عليه السلام الذي ذكر في القرآن الكريم رسولًا لأهل مدين، بأنه يحتمل

توقيت عهده بأوائل فترات ازدهار تاريخها القديم^(٣).

ويرجح بعض الباحثين المعاصرين من علماء الآثار والتاريخ: أن عصر شعيب عليه السلام إنما كان قبل عصر موسى، معتمدين في ذلك على أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر شعبيًا في القرآن الكريم - كما في سورة الأعراف وهود والحج والشعراء والعنكبوت - بعد نوح وهود وصالح ولوط، وقبل موسى^(٤).

ومن خلال تقديرهم لعصر الخليل عليه السلام، والذي كان بين: (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م)، وأن لوطا عليه السلام وقومه إنما كانوا معاصرين لأبي الأنبياء عليه السلام، قال بعض الباحثين المعاصرين: «إن شعبيًا وقومه إنما كانوا يعيشون بعد القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وخاصة أن المصادر التاريخية تذكر أن مدين هو من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام، فقدر

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٨٩/١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٩٧/٤، فتح القدير، الشوكاني ٥٨٩/٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢٠٥/٦.

(٣) انظر: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبدالعزيز بن صالح ص ١٣٥، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ٤٥٥/١، دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران ص ١٧١.

(٤) انظر: دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران ص ١٧٢.

هؤلاء - حدسًا عن غير يقين - أن القوم إنما كانوا يعيشون في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، على صحة فرض ما ذهب إليه بعضهم من أن يثرون كاهن مدين وصهر موسى، إنما هو شعيب نبي مدين العربي، وذلك لأنهم يقدرون رحلة خروج موسى من مصر متوجهًا إلى مدين، إنما كانت في هذا القرن الثالث عشر ق. م.^(١)

ويمكن القول: إن هذا التقدير ربما قد يكون صحيحًا أو يقارب الصحة إلى حد كبير؛ لأن بعض المفسرين يذكرون أن بين الخليل عليه السلام وموسى عليه السلام أربعمئة عام، وكذلك بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمئة عام^(٢)، بالإضافة إلى ما يذكر من أن شعيبًا عليه السلام كان من المعمرين، فقد ذكرت بعض المصادر أن شعيبًا عليه السلام عمر (٢٤٠) عامًا^(٣).

(١) انظر: تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبد العزيز بن صالح ص ١٣٥، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ١/ ٤٥٥، دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران ص ١٧١.

(٢) انظر: الكشف، الزمخشري ٢/ ١٣٨، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٢٩، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٩١، التفسير المنير، الزحيلي ٩/ ٣٧.

(٣) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ٢١٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٥.

ذكر مدين في القرآن الكريم

ورد ذكر مدين في القرآن الكريم (١٠) مرة في (٧) سورة، وقد ذكروا بلفظ (أصحاب الأيكة) (٤) مرات.

وأما قصتهم فقد وردت في السور الآتية:

الآيات	السورة
٩٣-٨٥	الأعراف
٩٥-٨٤	هود
٣٧-٣٦	العنكبوت
٢٩	الفتح

الأول: أنه شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه عليه السلام، وإن أمه بنت نبي الله لوط، وقال ابن إسحاق هو: شعيب بن ميكائيل بن يزجر بن مدين بن إبراهيم وأم ميكائيل بنت لوط.

الثاني: ما قاله عطاء بأنه: شعيب بن توبة بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

الثالث: شعيب بن يثرون بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام^(٢).

قال الإمام ابن عاشور معلقاً على الاختلاف في نسب النبي شعيب: «وشعيب عليه السلام هو رسول الله لأهل مدين، وهو من أنفسهم، اسمه في العربية شعيب عليه السلام واسمه في التوراة: (يثرون)، ويسمى أيضاً (رعوئيل)، وهو ابن (نويلى أو نوب) بن (رعويل) بن (عيفا) بن (مدين)، ثم قال: وقد خبط في نسب مدين، ونسب شعيب عليه السلام جمع عظيم من المفسرين والمؤرخين، فما وجدت مما يخالف هذا فانبهه»^(٣).

ويلاحظ من أقول المفسرين أنهم متفقون على أن شعيباً عليه السلام من ذرية

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٦٧/١٢، الكشف والبيان، الثعلبي ٢٦٠/٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٣٨٧/٢، معالم التنزيل، البغوي ٢١٤/٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٠١/٣، محاسن التأويل، القاسمي ١٥٦/٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٤١/٨.

رسول الله إلى مدين ورسالته

أولاً: رسول الله إلى مدين:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن الرسول الذي أرسله إلى مدين هو شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَالِإِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَكِيْنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْثُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا الْكَاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالِإِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَالِإِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ اصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٣٦] إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَنْقُوتَ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧].^(١)

واختلف المفسرون في نسب نبي الله شعيب عليه السلام على أقوال:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٥٤/١٢، لباب التأويل، الخازن ٢٢٦/٢.

إبراهيم الخليل عليه السلام^(١).

وقد ذكر جمهور المفسرين أن شعيباً عليه السلام من الأنبياء الأربعة العرب اعتماداً منهم على حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له عند ذكر الأنبياء والرسول: (وأربعة من العرب، هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر)^(٢).

وكان النبي شعيب مشهوراً بالفصاحة وعلو العبارة، وبلاغته في دعوة قومه إلى الإيمان والإسلام، فقد روى ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله^(١) ويلاحظ هذا الاتفاق من خلال ذكر نسب مدين في كتبهم.

انظر: جامع البيان، الطبري ٥٦٧/١٢، الكشف والبيان، الثعلبي ١٨٦/١٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٧٤/١١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٠١/٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤١٨/٢، الدر المنثور، السيوطي ٧٤٨/٢، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤٦٦/٨.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم ٣٦١، ٧٦/٢.

قال ابن كثير في تفسيره ٤١٨/٢: وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان البستي في كتابه الأنواع والتقايم، وقد وسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي فذكر هذا الحديث في كتابه الموضوعات، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث والله أعلم.

وقال السيوطي في الدر المنثور ٧٤٦/٢: أخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن الجوزي في الموضوعات، وهما في طرفي نقيض، والصواب أنه ضعيف لا صحيح ولا موضوع.

الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيباً قال: (ذاك خطيب الأنبياء)^(٣)، يعني: لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته^(٤).

[انظر شعيب: نبذة عن شعيب عليه السلام ومكانته]

ثانياً: رسالة النبي شعيب عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكُتِرْكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٦].

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين، رقم ٤٠٧١، ٢/٦٢٠، والطبري في تفسيره ٥٦٧/١٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٦٧/١٢، الكشف والبيان، الثعلبي ١٨٦/١٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٧٤/١١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٠١/٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤١٨/٢، الدر المنثور، السيوطي ٧٤٨/٢، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٤٦٦/٨.

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿النحل: ٢﴾.

كما قال تعالى بخصوص أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوَنَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٩].

لأن معرفة الله تعالى وتوحيده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتجاهد من حاربها وقام بضدها.

وهذا هو منهج جميع الأنبياء عليهم السلام: فقد قال الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وقال الله تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَلَيْكَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال الله تعالى عن صالح عليه السلام: ﴿وَلَيْكَ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٦١] (٢).

وقال سبحانه: ﴿وَلِإِي مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّقُوا الْمَكِيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَتَّقُوا أَوْفُوا الْمَكِيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّقُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٤-٨٦].

وقال عز وجل: ﴿وَلِإِي مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّقُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦].

فهذه الآيات السابقة تبين المحاور الرئيسة لدعوة النبي شعيب عليه السلام وهي: الأمر بتوحيد الله في العبادة، والنهي عن أشد الرذائل فُشُوا فيهم، والأمر بالفضيلة التي تقابلها (١)، وهذه المحاور هي:

١. الأمر بعبادة الله وتوحيده وتقواه.
إن الأنبياء عليهم السلام يشرعون في أول الأمر بالدعوة إلى التوحيد، ويأمرون بعبادة الله وحده، وينهون عن عبادة غير الله، وهذا أصل معتبر في شرائع جميع الأنبياء، وعليه مدار دعوة الرسل عليهم السلام كلهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِن أُنذِرُوا أَنَّهُمْ

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١١٦/١٢.

(٢) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/٢٥، غريب

٢. الأمر بالفضائل والنهي عن أشد الرذائل فُشُّوا فيهم.

١. دعوته إلى الفضيلة.

وذلك من خلال دعوته إلى الخير والمعروف، فقد أخذ نبي الله شعيب عليه السلام يسط لقومه في الكلام وهو يدعوهم للمعروف وينهاهم عن المنكر والفساد، فأراد أن يخرجهم من التعلق بالدنيا وزخارفها ويبين لهم أن أخذ المال وجمعه بالحلال خير لهم من أخذه بالظلم والخيانة وبطرق الحرام، فقال لهم برفق وحكمة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٨٥ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن مَّأْنَتَ بِهِ وَتَكْفُرُونَهَا عَوَجًا [الأعراف: ٨٥-٨٦].

وقال: ﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ ٨٦ [هود: ٨٦].

و﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم إن كنتم مؤمنين من أخذ أموال الناس بالتطفيف والظلم والخيانة، ويقال ﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: مراقبة

وكان أهل مدين على دين إبراهيم عليه السلام الذي هو الإسلام، هو دين جميع الأنبياء، ولكنه لم يطل بهم العهد حتى غيروا دينهم الحق، وكفروا بالله، وعبدوا غير الله، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، فغرتهم الحياة الدنيا ومتاعها الفاني، فقد كانوا أصحاب تجارة وسلع.

وكانوا على الطريق التجارية الكبيرة بين اليمن والشام، وبين العراق ومصر على ساحل البحر الأحمر، ولكن حب المال سيطر على قلوبهم وأعمالهم عن اتباع الحق، فقد كانوا يعبدون الأيكة، وزيادة على كفرهم وضلالهم فقد كانوا ينقصون المكيال والميزان ويطففون فيهما، أي: يأخذون مع الزيادة، ويدفعون مع النقصان، ويأكلون المال الحرام.

ولم يكتفوا بهذه المعاملة السيئة، بل كانوا يقطعون الطريق على المارة، ويتعرضون للقوافل، فيتوعدونها ويخيفونها ويعيثون في الأرض فسادًا^(١).

القرآن، ابن قتيبة ص ٢٠٨، جامع البيان، الطبري ٥٥٥/١٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٣٨٧/٢، تفسير السمعاني ١٩٧/٢، الكشف، الزمخشري ١٢٧/٢. (١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٥٨/١٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٣١٤/١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٢٦/٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٥١/٦، في ظلال القرآن، سيد قطب ١٩١٧/٤.

عليه السلام أمر قومه بالوفاء بالمكاييل والموازين أولاً، وذلك يكون بالاستقامة في الأخذ والإعطاء، ثم نهاهم عن نقصان المكاييل والموازين زيادة في التأكيد على ذلك، وكانت هذه المعصية قد فشلت فيهم في ذلك الزمن وفحشت مع كفرهم الذي نالهم الرجفة بسببه.

الثاني: النهي عن بخس الناس أشياءهم. والبخس في المعاملة هو: النقص والظلم والتقليل، ومعناه لا تظلموا الناس حقوقهم التي يجب عليكم أن توفوهم إياها، و﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: أموالهم وأمتعتهم مما يكال أو يوزن، وحقوقهم^(٤).

والنهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، عام يتناول كل حق يدخله البخس والنقص سواء أكان ذلك من الأشياء المادية أو المعنوية^(٥).

وقد فشا كل من هذا النوع في هذا العصر، مما أدى إلى انهيار الاقتصاد، فكثير من التجار باخسون، مطفون فيما يبيعون وما يشترون، وكثير من المشتغلين بالعلوم والآداب والسياسة باخسون لحقوق بني جلدتهم، مُدَّعُونَ للتفوق عليهم، منكرون

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٨٤/١٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٢٦/٢.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٤٤٦/١٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٣٨٧/٢، تفسير السمعاني ١٩٧/٢.

الله خير لكم^(١).

وقال الراغب هو: «ما يبقى ثوابه للإنسان من الأعمال، والصحيح أنها كل عبادة يقصد بها وجه الله تعالى»^(٢).

والقليل من الحلال الطيب خير من الكثير من الحرام الخبيث، وذلك لأن الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام ممحوق لا بركة فيه وإن كثر، كما قال تعالى: ﴿يَمَحُوقُ اللَّهُ الزُّبْرَ وَيُزَيِّدُ الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الربا وإن كثر، فإن عاقبته تصير إلى قُلٍّ)^(٣).

٢. النهي عن أشد الرذائل فُشُوا فيهم.

كانت هناك بعض المنكرات التي يمارسها قوم النبي شعيب عليه السلام والتي نهاهم عنها وهي:

الأول: النهي عن التلاعب بالمكاييل والموازين في الأخذ والعطاء.

من خلال الآيات يلاحظ أن النبي شعيباً

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٥٥/١٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٣٨٧/٢، تفسير السمعاني ١٩٧/٢، الكشف، الزمخشري ١٢٧/٢.

(٢) انظر: المفردات ص ١٣٩.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٣٧٥٤، ٢٩٧/٦، عن ابن مسعود، والحاكم المستدرک علی الصحیحین رقم ٢٢٦٢، ٤٣/٢.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

لما خص الله به سواهم من المزايا والخصائص حسداً عليهم وبغيًا، فيدخلون في عموم حكم الآية وهو تحريم بخس الناس أشياءهم بمختلف أنواعها^(١).

الثالث: النهي عن الفساد في الأرض والعتو فيها.

ذكر الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام أنه نهى قومه عن الفساد في الأرض بقوله: ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٨٥) يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ^(٨٦) [هود: ٨٥-٨٦].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

﴿وَلَا تَفْسِدُوا﴾ لفظ عام يتناول جميع أنواع الفساد دقيقه وجليله، وهو نهى شامل لكل ما يمس نظام المجتمع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وإفساد الأخلاق والآداب: بارتكاب الإثم والفواحش، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام^(٢).

وكذلك الإصلاح لفظ عام: والمفسرون نَصُّوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد،

وإلى النبوءات والشرائع بالإصلاح^(٣). والمعنى: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه، من عبادة غير الله، والإشراك به، وبخس الناس في الكيل والوزن (بعد إصلاحها)، يقول: بعد أن أصلح الله الأرض بالأمر بالعدل وإرسال الرسل وابتعث النبي شعيب فيكم، ينهاكم عما لا يحل لكم، وما يكرهه الله لكم^(٤).

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾، فيه إشارة إلى كل ما تقدم من أمر ونهي، أي: هو خير لكم في دينكم ودنياكم، لا تكليف إعنات، فربكم لا يأمركم إلا بما هو نافع لكم، ولا ينهاكم إلا عما هو ضار بكم، وهو على كل حال غني عنكم، ولو شاء لأعتكم، ولكنه رحيم لا يفعل ذلك، ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقاً أو في الإنسانية وحسن الأحداث وجمع المال، وإنما تتحقق لكم خيرية ما ذكر إن كنتم مؤمنين بوحدانيته وصفاته تعالى، وبرسوله وما جاءكم به عنه سبحانه من الدين والشرع، وسيأتي تعليل ذلك بعد بيان

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٢٦/٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٥٥/١٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣٥٤/٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٣٨٧/٢، تفسير السمعاني ١٨٩/٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٢٦/٢.

(١) انظر: تفسير المراغي ٢١٠/٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢٠٧/٨.

ما قيل في هذا الإيمان^(١).
الرابع: النهي عن قطع الطريق.

قال عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا يَكُلَّ صِرَاطَ تَوْعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

نهى النبي شعيب عليه السلام قومه عن قطع الطريق الحسبي والمعنوي؛ لأنهم كانوا يتوعدون الناس بالقتل، إن لم يعطوهم أموالهم؛ لأنهم كانوا عشارين، وذلك من قبيل بخسهم ونقصهم الكيل والوزن، وهذا نهى للعشارين ونحوهم من أخذ أموال الناس بالباطل، والسلب وقطع الطريق.

كما أنه نهاهم عن القعود على الطرقات التي توصل إليه، مخوفين من يجيئه، ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته، وصددهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والاستقامة على الطريق

الموصلة إلى سعادة الدارين، وابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالظعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها، وهم يعلمهم هذا ارتكبوا ضلالتين: التقليد والعصية للأباء والأجداد، وضلالة الغلو في الحرية الشخصية التي أباحت لهم

(٢) تفسير المراغي ٨/ ٢١٢.
وانظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧،
الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧، المحرر
الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٦، مفاتيح الغيب،
الرازي ١٤/ ٣١٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١،
التفسير الوسيط، الزحيلي ١/ ٦٩٠.

(١) انظر: أنوار التنزيل، البضاوي ٣/ ٢٣ البحر
المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٥ تفسير القرآن
العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٠١، تفسير المنار،
محمد رشيد رضا ٨/ ٤٧٠.

ذهاباً إلى أن النبي لما كان يدعو إلى شرع يوجب قبوله، فلا بد من دليل يعلم صدقه به، وما ذاك إلا المعجزة- قال: إن معجزة شعيب لم تذكر في القرآن، وليست كل آيات الأنبياء مذكورة في القرآن، يعني: دعوته وإرشاده.

لأنه لا بد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه، وكان متنبئاً لا نبياً، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن الكريم، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيه^(١).

يؤيد هذا ما روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)^(٢). أي: إن كل نبي مرسل أعطاه الله من الآيات الدالة على صدقه وصحة دعوته ما شأنه أن يؤمن البشر على مثله^(٣).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٥٥/١٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٣٨٧/٢، الكشف، الزمخشري ١٢٧/٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٠١/٣، محاسن التأويل، القاسمي ١٤٦/٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣٩/٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٩٥/٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم ٤٩٨١، ٦/١٨٢.

(٣) انظر: الكشف، الزمخشري ١٢٧/٢.

وقال بعض المفسرين: عني بالبيئة مجيء شعيب، وأنه لم تكن له آية إلا النبوة، ولا يخفى أن البيئة أعم من المعجزة بعرفهم، فكل من أبطلت شبهة ضلاله، وأظهرت له حجة الحق الذي يدعى إليه فقد جاءته البيئة؛ لأن حقيقة البيئة كل ما يبين الحق، فتشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية، والأمم القديمة لم تكن تدعن إلا لخوارق العادات^(٤).

قال سيد قطب: «ولا يذكر السياق نوع هذه البيئة-كما ذكرها في قصة صالح-ولا نعرف لها تحديداً من مواضع القصة في السور الأخرى، ولكن النص يشير إلى أنه كانت هناك بيئة جاءهم بها، تثبت دعواه أنه مرسل من عند الله، ويرتب على هذه البيئة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيل والميزان، والنهي عن الإفساد في الأرض، والكف عن قطع الطريق على الناس»^(٥).

[شعيب: معالم نصح شعيب عليه السلام لقومه]

(٤) انظر: تفسير المراغي ٢٠٩/٨.
(٥) انظر: في ظلال القرآن ١٣١٧/٣.

موقف مدین من رسولهم علیه السلام

أولاً: جواب مدین وکیف واجهوا دعوته:

تبين الآيات الآتية جواب قوم شعيب شعيباً عليه السلام، وكيف واجهوا دعوته.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَرُوا آبِدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ ۖ﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۚ﴾ ﴿٨٨﴾ قد أَقْرَبْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفَتَحَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ۚ﴾ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَرُوا آبِدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۖ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ۚ﴾ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَبْقَرُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ رَفِيٍّ وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّاءَ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ

أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقُولُوا لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَنْشَعِبُ مَا نُنَفِّقُهُ كَثِيرًا وَمَا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَبْقَرُوا أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ [هود: ٨٤-٩٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٩٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿٩٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٩٥﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٩٦﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٩٧﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩٨﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٨].

ومن خلال هذه الآيات يتبين أن رد أهل مدین على شعيب عليه السلام عما أمرهم به كان متنوعاً بين رد خطاب بخطاب والرد بالاستهزاء والإهانة والتكذيب، والرد بالتهديد بالطرد والتهجير، والرد بالتهديد

بالبقتل على النحو الآتي:

١. رد خطاب بخطاب.

يبين القرآن الكريم أن قوم شعيب ردّوا خطاب النبوة والرحمة والهداية بخطاب فيه السخرية والاستهزاء والتكذيب بما لا يليق بنبي مرسل لقومه على النحو الآتي:

أما ردّهم على أمرهم بعبادة الله وحده، فقالوا: ﴿قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، أي: هل صلاتك التي تكثر منها تأمرك بترك عبادة آبائنا وأجدادنا، وهي عبادة الأوثان والأصنام، وهذا منهم على سبيل الاستهزاء والسخرية، فهم مصرون على تقليد أسلافهم في الوثنية.

وأما الرد على ترك البخش (النقصان) في الكيل والميزان فقالوا: ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا فَشْتَوْنَا﴾، أي: وهل صلاتك تأمرك أن تترك فعل ما نريد فعله؟ ومقصودهم أن مطلبه بالعدل وأداء الزكاة منافٍ لسياسة تنمية المال وتكثيره، وهو حَجَرٌ وتقيد لحريتهم الاقتصادية.

واختلف في معنى «الصلاة» هنا، فقالت فرقة: أرادوا الصلوات المعروفة، وروي أنّ شعيباً عليه السلام كان أكثر الأنبياء صلاة، وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة، وقيل: أرادوا قراءتك، وقيل أرادوا: أمساجدك؟ وقيل: أرادوا:

أدعواتك، وقيل: دينك الذي تدين به وأمرت باتباعه؛ لأن أصل الصلاة الاتباع، ومنه أخذ المصلي في الخيل.

قال القاضي أبو محمد: وأقرب هذه الأقوال الأول والرابع، وجعلوا الأمر من فعل الصلوات على جهة التجوز، وذلك أن كل من حصل في رتبة من خير أو شر ففي الأكثر تدعوه رتبته إلى التزيد من ذلك النوع، فمعنى هذا: ألما كنت مصلياً تجاوزت إلى ذم شرعنا وحالنا؟ فكأن حاله من الصلاة جَسَرْتُهُ على ذلك فقيل: أمرته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] (١).

﴿تَأْمُرُكَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: تدعوك إلى أمرنا، الثاني فيها: أن تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا يعني من الأوثان والأصنام. ﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا فَشْتَوْنَا﴾، فيه ثلاثة تأويلات:

أحدها: ما كانوا عليه من البخش والتطفيف.

الثاني: الزكاة، كان يأمرهم بها فيمتنعون منها، قاله زيد بن أسلم وسفيان الثوري.

الثالث: قطع الدراهم والدنانير؛ لأنه كان ينهاهم عنه، قاله زيد بن أسلم (٢).

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٠.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤١٩، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

وهو النبوة والحكمة، ولا أنهاكم عن الشيء وأقع في المنهي عنه، ولا أريد إلا إصلاحكم بمقدار استطاعتي، وليس توفيقى في إصابة الحق فيما أريده إلا بالله وهدايته وعونه، وعليه توكلت في جميع أموري، ومنها تبليغ رسالتي، وإليه أنيب وأرجع. وهذا دليل على ثبات شعيب على المبدأ وإخلاص الدعوة، دون أن يخشى من قومه سوءاً.

٢. الرد بالاستهزاء والتكذيب.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَلْحِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم قالوا ذلك استهزاء به، قاله قتادة.

الثاني: معناه أنك لست بحليم ولا رشيد على وجه النفي، قاله ابن عباس.

الثالث: أنهم اعترفوا له بالحلم والرشد على وجه الحقيقة وقالوا أنت حلیم رشيد فلم تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء؟ والحلم والرشد لا يقتضي منع المالك من فعل ما يشاء في ماله (٢).

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤٩٦/٢، الكشف، الزمخشري ٤١٩/٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٠٠/٣، تفسير السمعاني ٤٥٣/٢ معالم التنزيل، البغوي ١٩٧/٤.

قال سيد قطب: « ولقد كانت الجاهليات - كما هي اليوم - تفصل بين العقيدة والعبادات، وبين الشرائع والمعاملات من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ ومن ثم يربط السياق القرآني بين قواعد التعامل في المال والتجارة والبيع والشراء، وبين هذا المعرض الخاص بالعقيدة، للدلالة على طبيعة هذا الدين، وتسويته بين العقيدة والشرعية، وبين العبادة والمعاملة، في أنها كلها من مقومات هذا الدين، المرتبطة كلها في كيانه الأصيل (١).

أجابهم شعيب بما يحسم أطماعهم بقوله: ﴿قَالَ يَنْفَقِرُ آدَمُ يَشْرُكُ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُلْخِلَكُمُ إِنْ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْفَقِرُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ يَعْصِيهِ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٨٨-٩٠].

أخبروني يا قوم إن كنت على بصيرة من ربي فيما أدعو إليه، ورزقني منه رزقا حسنا،

(١) انظر: في ظلال القرآن ١٨٤٢/٤.

﴿قَالُوا يَنْشِئُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾

[هود: ٩١]، أي: ما نفهم ما تقول، ومنه سمي علم الدين فقها؛ لأنه مفهوم، وفيه وجهان: أحدهما: ما نفقه صحة ما تقول من البعث والجزاء، الثاني: أنهم قالوا ذلك إعراضاً عن سماعه واحتقاراً لكلامه^(١).

ولم ينفعهم هذا الأسلوب أيضاً، فلجئوا إلى الإهانة والتهديد، قائلين: يا شعيب، ما نفهم كثيراً من قولك، مع أنه خطيب الأنبياء، وأنت واحد ضعيف، ولولا رهطك أو عشيرتك وقربتك لرجمناك بالحجارة، وليس لك معزة ولا تكريم.

ويشبه هذا الذي ردوا به على نبيهم ما قال كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ آذَانِنَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَافِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥].

﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فيه سبعة تأويلات:

أحدها: ضعيف البصر، قاله سفيان.

الثاني: ضعيف البدن، حكاه ابن عيسى.

الثالث: أعمى، قاله سعيد بن جبيرة وقتادة.

فتح القدیر، الشوكاني ٥٨٨/٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.
(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤٩٩/٢.

الرابع: قليل المعرفة وحيداً، قاله السدي.

الخامس: ذليلاً مهيناً، قاله الحسن.

السادس: قليل العقل.

السابع: قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها.

ويلاحظ من خلال تعبيرهم بالضعف أنه يحتمل هذه المعاني كلها في نظرهم.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: عشيرتك، وهو قول الجمهور.

الثاني: لولا شيعتك، حكاه النقاش.

﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لقتلناك بالرجم.

الثاني: لشتمنناك بالكلام.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: بكريم.

الثاني: بممتنع لولا رهطك^(٢).

وتلك سنة متبعة درجت عليها الأمم مع أنبيائها عليهم السلام، فقد استهزأ قوم نوح به عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

واستهزأت عاد يهود: عليه السلام ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٨٧].

واستهزأت ثمود بصالح، عليه السلام.

(٢) انظر: النكت والعيون الماوردي ٤٩٩/٢، تفسير السمعاني ٤٥٣/٢، معالم التنزيل، البغوي ١٩٧/٤.

٣. الرد بالتهديد بالطرد والتهجير.

فقد هدد الملاء وهم كبار القوم من قومه شعبياً عليه السلام بالطرد والتهجير من بلده: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّصْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتُحِبُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَرِيقَيْنِ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

وهذا النوع من التهديد يفعل مع جميع الأنبياء، ومن بعدهم الدعاة المخلصون، كما قال تعالى عن نبي الله لوط عليه السلام: ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٢].

وقال تعالى عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِلَّا نَصُورُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].^(٣)

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤٩٦/٢،

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦].

واستهزؤوا بشعيب: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

واستهزأ فرعون بموسى عليه السلام. قال سبحانه: ﴿أَمَأَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢].^(١)

أما التكذيب فهو ما جاءت به الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَدُ اللَّهِ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦-٣٧].^(٢)

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤٩٦/٢، الكشف، الزمخشري ٤١٩/٢ المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٠٠/٣، تفسير السمعاني ٤٥٣/٢ معالم التنزيل، البغوي ١٩٧/٤، فتح القدير، الشوكاني ٥٨٨/٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

(٢) انظر: الكشف، الزمخشري ٤١٩/٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٠٠/٣، تفسير السمعاني ٤٥٣/٢، فتح القدير، الشوكاني ٥٨٨/٢.

٤. الرد بالتهديد بالقتل.

هدد قوم شعيب النبي شعيبًا بالقتل بالرجم، والرجم من شر القتل، قال الله تبارك وتعالى إخبارًا عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١].

فلم يكتفوا باستكبارهم عن اتباع الحق الذي جاء به نبيهم، بل واجهوه بأنهم لولا عشيرته وقبيلته لرجموه بالحجارة حتى القتل وتخلصوا منه.

فقال لقومه: ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: ٩٢].

أي: أتخافون من قبيلتي وعشيرتي وتراعوني بسببهم وخوفًا منهم ولا تخافون عذاب الله، وجعلتم أمر الله وراء ظهوركم لجهلكم وتكبركم، والله سبحانه عليم بما تعملونه لا يخفى عليه شيء، محيط بذلك كله وسيجزيكُم عليه يوم القيامة^(١)..

الكشاف، الزمخشري ٤١٩/٢ المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٠٠/٣، تفسير السمعاني ٤٥٣/٢، معالم التنزيل، البغوي ١٩٧/٤، فتح القدير، الشوكاني ٥٨٨/٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٥٨٧/٢، النكت والعيون، الماوردي ٤٩٦/٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٠٠/٣، تفسير السمعاني

والرَهْط: الجماعة من الثلاثة إلى العشرة،

وقيل: يقال إلى الأربعين، قال: ﴿تَسْعَةٌ رَّهْطٌ يُفْسِدُونَ﴾ [النمل: ٤٨] والمراد لولا عشيرتك وقالوا لولا رهطك على سبيل التقليل والاحتقار^(٢).

ثانيًا: إنذار شعيب قومه بالعذاب ووقوعه بالفعل:

لم تجد وسائل الإصلاح اللينة والكلمة الطيبة بقوم شعيب، فتحول أسلوبه من لين القول إلى الإنذار بالعذاب، وطلب المغفرة من الله والتوبة إليه، فازداد تعنتهم وإعراضهم، وأمهلهم ليصلحوا شأنهم أو يترقبوا إنزال العقاب بهم، فلم يبدلوا حالهم، فكانت النتيجة عقابهم بالصيحة التي دمرتهم، وإنجاء المؤمنين، وهذا ما سجله القرآن الكريم في الآيات الآتية:

﴿وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا فَبَيَّنَّا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِينَ مُنْفَكِينَ ﴿٩٤﴾﴾

٢/٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ١٩٧/٤. (٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤٩٦/٢، الكشاف، الزمخشري ٤١٩/٢، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٠٠/٣، تفسير السمعاني ٤٥٣/٢.

نعم الله على مدین وموقفهم منها

أنعم الله تعالى على قوم شعيب عليه السلام بمختلف النعم بصفة عامة، شأنهم في ذلك شأن سائر الأمم السابقة واللاحقة بهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ سَاءَ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٥٣].
﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ﴾ [النحل: ٣٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].^(١)

وذلك لأن نعم الله تعالى على عبده لا يمكن عدّها وحصرها؛ لأن كل ما أودع الله في السماء والأرض والأجسام من المنافع واللذات التي ننتفع بها، وكذلك الجوارح والأعضاء التي نستعملها، وما خلق الله تعالى في العالم هو من نعم الله تعالى.^(٢)

أما نعم الله الخاصة على قوم شعيب عليه السلام فهي ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/٥٦٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/٣٥٥، تفسير السمعاني ٢/١٩٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/٣١٥، البحر المحيط، أبو حيان ١٠٨/٥.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/٤٧٥.

لَتَرِيَنَافِيهَا أَلَا بَعْدَ لَمَينَ كَا بَعَدَتْ ثُمَّ دُ ﴿١٥﴾ [هود: ٩٣-٩٥].^(١)

ولما يش شعيب عليه السلام من إجابتهم دعوته، حسم الموقف قائلا: يا قوم، اعملوا على طريقتكم، واعملوا كل ما في وسعكم وطاقتكم من إلحاق الشر بي، فإنني عامل أيضا على طريقتي بما آتاني الله من القدرة، أي: فأنتم ثابتون على الكفر والضلال، وأنا ثابت على الدعوة إلى عبادة الله والثقة بقدرته، ولسوف تعلمون من ينزل به عذاب يخزيه ويذله في الدنيا والآخرة، ومن هو كاذب في قوله مني ومنكم، وانتظروا ما أقول لكم من إيقاع العذاب، إني معكم رقيب منتظر، وهذا وعيد وتهديد لمن يفهم ويدرك المقال.^(٢)

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/٤٩٦، الكشف، الزمخشري ٢/٤١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/١٩٧.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/٤٩٦، الكشف، الزمخشري ٢/٤١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٢٠٠، تفسير السمعاني ٢/٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/٥٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٧.

فَكَثَّرَكُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ
الْمُفْسِدِينَ ﴿[الأعراف: ٨٦] وهذه الآية كقوله
تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ
فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَلَفَكُمْ النَّاسُ
فَتَاوَنَكُمْ وَيَتَذَكَّمْ بِصَرْهٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] (١).

فقد ذكرهم نبيهم شعيب عليه السلام
بنعم الله عليهم الخاصة بهم حين كانوا قلة
فكثروا، وفقراء فاعتنوا، وضعفاء فتقووا،
ولفت نظرهم إلى ضرورة الاتعاظ بأحوال
من سبقهم أو جاورهم من الأمم والشعوب
الخالية، فإنهم حين كذبوا الرسل وكفروا
بالله، دمرهم الله واستأصلهم وأبادهم
وجعلهم عبرة لمن جاء بعدهم (٢).

وقد حكى الإمام الزجاج في قوله
تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا
فَكَثَّرَكُمْ﴾ ثلاثة أوجه:

«أحدها: كثر عددهم بعد القلة، قال ابن
عباس رضي الله عنه: وذلك أن مدين بن
إبراهيم تزوج زينا بنت لوط وولد آل مدين
منها.

والثاني: كثرهم بالغنى بعد الفقر.

- (١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/٢٣٩،
البحر المحيط، أبو حيان ٥/١٠٨، تفسير
القرآن العظيم، ابن كثير ٣/٤٠٢، لباب
التأويل، الخازن ٢/٢٢٧، محاسن التأويل،
القاسمي ٥/١٤٨، التفسير الوسيط، طنطاوي
٥/٣٢٢، التفسير المنير، الزحيلي ٨/٢٩٦.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعراجه، الزجاج ٢/٣٥٥.

والثالث: كثرهم بالقوة بعد الضعف.
وذكر بعض المفسرين وجهًا رابعًا:
أنه كثرهم بطول الأعمار بعد قصرها من
قبل (٣).

قال أبو حيان أثير الدين الأندلسي:
«المراد مجموع الأقوال الأربعة، فإنه تعالى
كثر عددهم وأرزاقهم، وطول أعمارهم،
وأعزهم بعد أن كانوا على مقابلاتها» (٤).

وصيغة الأمر في قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا
إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ في الآية
المذكورة تدل على وجوب ذكر النعمة على
سبيل الشكر والاعتراف بنعم الله تعالى بأن
كثر جماعتهم بعد أن كانوا قليلا عددهم،
وأن رفعهم من الذلة والخساسة، وأغناهم
بعد أن كانوا فقراء، وقواهم بعد أن كانوا
ضعفاء، وما يستوجب ذلك من الإيمان بالله
تعالى وطاعته، وكأنه يقول لهم: فاشكروا
الله الذي أنعم عليكم بذلك، وأخلصوا له
العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا
نقمته بترك المعصية (٥).

- (٣) انظر: معاني القرآن وإعراجه، الزجاج ٢/٣٥٥،
النكت والعيون، الماوردي ٢/٢٣٩، البحر
المحيط، أبو حيان ٥/١٠٨، تفسير القرآن
العظيم، ابن كثير ٣/٤٠٢.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/١٠٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/٥٦٠، النكت
والعيون، الماوردي ٢/٢٣٩، تفسير القرآن
العظيم، ابن كثير ٣/٤٠٢، البحر المحيط،
أبو حيان ٥/١٠٨، أضواء البيان، الشنقيطي
٤/٣٩٢.

٤. أن التذكير بالنعمة الكثيرة يفيد أن المنعم خصهم من بين سائر الناس بها، ومن خصَّ أحدًا بنعم كثيرة فالظاهر أنه لا يزيلها عنهم لما قيل: إتمام المعروف خير من ابتدائه، فكأن تذكير النعم السالفة يطمع في النعم الآتية، وذلك الطمع مانع من إظهار المخالفة والمخاصمة^(٢).

والتذكير بنعمة الله تعالى طريق من طرق مواظب الرسل.

قال تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وقال عن شعيب عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

وقال الله لموسى عليه السلام: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ [إبراهيم: ٥].

وقال عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِنَكُمْ وَآيَدُكُمْ يَضْرِبُهُمْ وَرِزْقُكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]^(١).

ويكون المراد من التذكير بالنعمة ما يأتي: ١. أن في جملة النعم ما يشهد بصدق النبي شعيب وبرسالته التي جاء بها.

٢. أن كثرة النعم توجب عظم المعصية، فذكرهم تلك النعم لكي يحذروا مخالفة ما دعوا إليه من الإيمان بالله ورسوله.

٣. أن التذكير بالنعمة الكثيرة يوجب الحياء من الله تعالى عن إظهار المخالفة.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٦٠/١٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣٥٥/٢، تفسير السمعاني ١٩٨/٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٣١٥/١٤، البحر المحيط، أبو حيان ١٠٨/٥.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٢/٤، أيسر التفاسير، الجزائري ٢٠٢/٢.

عاقبة قوم مدين

لما وصل النبي شعيب عليه السلام مع قومه إلى طريق مسدود، ويئس من إجابتهم، فوض أمره إلى الله تعالى، الذي يعتمد عليه الإنسان في أموره كلها؛ لأنه الكافي لمن توكل عليه قائلا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

ثم فزع عليه السلام إلى ربه بالدعاء على قومه بالهلكة وتعجيل العقوبة، إذ أيس من فلاحهم، وانقطع رجاؤه من إزعانهم لله بالطاعة والإقرار له بالرسالة، وخاف على نفسه وعلى من اتبعه من مؤمني قومه من فسقهم، فقال: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

أي: احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم، وأنت خير الفاتحين، أي: خير الحاكمين، فإنك العدل الذي لا يجور أبداً، فاستجاب الله دعاءه، فأهلكهم بالرجفة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩].

وقوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

والاستفتاح هو: الإنصاف في الدعاء، والاستنصار، وطلب الحكم بالحق^(١).

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ آخِرُ الْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وهذا الدعاء كانت تقوله الأنبياء لما أخرجهم ابن جرير وابن كثير عن قتادة أنه قال: كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك، وأخرجوا كذلك عن مالك عن زيد بن أسلم: كان رسول الله عليه السلام إذا شهد قتالا قال رب احكم بالحق^(٢).

فأجابهم شعيب عليه السلام على سبيل التهديد والوعيد لهم بعذاب الله: ﴿وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [١٣] وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا [هود: ٩٣-٩٤].

وفي الشعراء قال لهم: ﴿قَالَ رَبِّيَ اعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨].

يعني: هو عالم بأعمالكم، فإن أراد أن يقيقكم، وإن أراد أن يهلككم أهلككم، وإن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره إلى

والبيان، الثعلبي ٢٦٢/٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٠٢/٣.

(٢) انظر: جامع البيان ٥٥٤/١٨، تفسير القرآن العظيم ٣٤٠/٥.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣١٩/١٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣٥٧/٢، النكت والعيون، الماوردي ٢٤٠/٢، الكشف

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٣٧﴾ [العنكبوت: ٣٦-٣٧].

أي: رجفت بهم أرضهم وزلزلت -بمشيئة الله وقدرته- زلزالاً شديداً، أزهقت أرواحهم فأصبحت جثثهم جاثية، لا أرواح فيها، ولا حركات ولا حواس، فأصبحوا في دارهم جاثمين، أي: ساقطين على ركبهم ووجوههم، وذلك لأنهم قالوا لنبيهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]. فأرجفوا نبي الله عليه السلام ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة، فكانت جزاء على إرجافهم (٢).

والرجفة في اللغة: الزلزلة الشديدة، قال الطبري: والرجفة مئذ الأرض بهم وزلزلتها عليهم وتداعيها بهم، وذلك نحو من الخسف، ومنه الإرجاف بالأخبار، و«الجثوم» في هذا الموضع تشبيه، أي: كان همودهم على الأرض كالجثوم الذي هو للطائر والحيوان (٣).

وقد وصف الله تعالى عذاب قوم شعيب بما وصف به يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجْفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّادَةُ ۖ قُلُوبٌ يُومِئذٍ وَاجِفَةٌ ۖ﴾ [النازعات: ٦-٨].

أجل معلوم، وما علي إلا البلاغ، وأنا مأمور به، فلم أنذركم من تلقاء نفسي، ولا أدعي القدرة على عذابكم (١).

وقد ذكر تعالى صفة عاقبة أهل مدين، وكيف كان هلاكهم في ثلاثة مواطن من كتاب الله تعالى، وذكر تعالى أنهم عذبوا بأنواع مختلفة من العذاب في كل موطن من المواطن الثلاثة بصفة تناسب ذلك السياق الذي وردت فيه، كما تناسب الموقف الصادر من قوم شعيب تجاه نبيهم عليه السلام، ويمكن تفصيل هذه الأنواع من العذاب فيما يأتي:

أولاً: العذاب بالرجفة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيَنِ اتَّبِعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْ كَذَّبْتُمْ عَنْهُ فَاسْتَجِبْكُمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَخْسَرُوا مَالَهُمْ خَسَرَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ وَفُتِنَتْ عَنْهُمْ قُلُوبُهُمْ وَقَالَ يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَنِي مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَسْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَالِئِنَّ مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومُ عَبْدُ اللَّهِ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۚ فَكَذَّبُوهُ﴾

(١) انظر: تفسير السمعاني ٦٥/٤، الوجيز الواحد ص ٧٨٦، تفسير المراغي ١٠١/١٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٦٦/١٢.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣١٦/٤.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مِهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤] ^(١).

ثانيًا: العذاب بالصيحة:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِيحًا ﴿١٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِّمَن كَانَ بُعِدَتْ سَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

والصيحة: هي الصوت المدوي العالي، الذي يصم الآذان من شدته وعلوه، وهذه الصيحة ناتجة عن الرجفة والزلزلة، فلما انشقت الأرض، حدث انفجار بركاني كبير مدوّ، وسمعوا صوت ذلك الانفجار، فأصيبوا بالفزع والهلع ^(٢).

وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله شعيب عليه السلام في قولهم: ﴿أَصْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُ أَنْتَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم عن

آخرهم ^(٣).

ثالثًا: عذاب يوم الظلة:

قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ يَوْمَ تَمْلَكُونَ ﴿١٨٨﴾ فِكْذُوبَهُمْ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٩١].

وها هنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه فأخذهم عذاب يوم الظلة ^(٤).

قوله تعالى: ﴿كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: جانبًا من السماء، قاله الضحاك، الثاني: قطعًا، قاله قتادة، الثالث: عذابًا، قاله السدي ^(٥).

والظلة: سحابة أظلتهم، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من حر ذلك اليوم، ثم أطبقت عليهم، فكان أعظم يوم في الدنيا عذابًا، وذلك معنى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [١٨٩] إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

(١) انظر: معاني القرآن، النحاس ٤٩/٣، المفردات، الراغب ص ٣٤٤.

(٢) القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ٤٩١/١.

انظر: معاني القرآن، النحاس ٣٧٧/٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٩٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٥٩/١٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤٤/٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٣٦/٢.

(٥) انظر: النكت والعيون، الماوريدي ١٨٦/٤.

مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ [الشعراء: ١٨٩-١٩٠] (١).

قال ابن عطية: «يوم الظلة هو يوم عذابهم وصورته فيما روي أن الله امتحنهم بِحَرٍّ شَدِيدٍ، فلما كان في ذلك اليوم غشي بعض قُطْرِهِمْ سحابٌ فجاء بعضهم إلى ظله فأحس فيه بردًا وروحًا فتداعوا إليه، حتى تكاملوا فيه فأضطرمت عليهم تلك السحابة نازًا فأحرقتهم من عند آخرهم، وللناس في حديث يوم الظلة تطويلات لا تثبت، والحق أنه عذاب جعله الله ظلة عليهم، وذكر الطبري عن ابن عباس أنه قال: من حدثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب، وباقي الآية بين.

ويحتمل أن فرقة من قوم شعيب أهلكت بالرجفة وفرقة بالظلة ويحتمل أن الظلة والرجفة كانتا في حين واحد، وروي أن الله تعالى بعث شعيبا إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة، وقيل هما طائفتان وقيل واحدة وكانوا مع كفرهم يبخسون الكيل والوزن فدعاهم فكذبوه فجرت بينهم هذه المقابلة المتقدمة، فلما عتوا وطالت بهم المدة فتح الله عليهم بابا من أبواب جهنم فأهلكهم الحر منه فلم ينفعهم ظل ولا ماء، ثم إنه بعث سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برد الريح وطيها فتنادوا، عليكم الظلة، فلما اجتمعوا تحت الظلة، وهي تلك السحابة

انطبقت عليهم فأهلكتهم» (٢).

وهذا من جنس ما سأله من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام، لا يكتفون منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها، أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ولها ووهجا عظيما، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣).

قال الحافظ ابن كثير: «ذكر تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي (الأعراف) ذكر أنهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١].

وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مَلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٩٤].

ذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٤/ ٢٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٢٢، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣١٩.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٩٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٩٨.

أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ [هود: ٨٧].

قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء،
فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال:
﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ وههنا قالوا:
فأسقط علينا كسفا من السماء الآية، على
وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحقق
عليهم ما استبعدوا وقوعه فأخذهم عذاب
يوم الظلة^(١).

ومن هنا يعلم أن هناك سببا مشتركا في
عقاب الأمم المتقدمة وإهلاكهم، وهو
الكفر بالله كفر تحد وعناد، مع الإفساد، في
الأرض بالمعاصي الكبائر.

فقوم مدين: «رفضوا دعوة نبيهم شعيب
عليه السلام الذي قال لهم: إن الله تعالى
واحد فاعبدوه، والحشر كائن، فارجوه،
والفساد بالكفر والظلم والمعصية محرم فلا
تقربوه، فكذبوه فيما دعاهم إليه وأخبرهم
به»^(٢). فعاقبهم الله كما ذكر هنا، وفي
الأعراف بالرجفة، وفي هود بالصيحة،
والأمر واحد، فإن الصيحة كانت سببا
للرجفة، أي زلزلة الأرض، إما بسبب صيحة
جبريل، وإما بسبب رجفة الأفئدة التي
ارتجفت منها، ولما كانت الصيحة عظيمة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٠٢/٣، التحرير

والتنوير، ابن عاشور ٢٤٧/٢٠، التفسير
القرآني للقرآن ٤٣٣/٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١٩/١٤.

أحدثت الزلزلة في الأرض، فأصبحوا
جاثمين ميتين في ديارهم.

وأما ثمود قوم صالح عليه السلام فكذبوا
رسولهم، وأعلنوا كفرهم، وهددوا نبيهم
بالطرد والإخراج من بلدهم، وعقروا الناقة
التي أرسلها الله إليهم معجزة لنبيهم صالح،
وكان عقابهم كعقاب أهل مدين بالصيحة أو
الزلزلة أو الطاغية، وبقيت آثار ثمود وعاد
بالحجر والأحقاف شاهدة على ظلمهم،
 وآية بينة مؤثرة للمعتبرين المتعظين^(٣).

أما عاد قوم هود عليه السلام فقد أهلكهم
الله تعالى بظلمهم حين فقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا
قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؟ فأنكروا وجود الإله
الخالق القادر، وعتوا وبغوا وتعالوا على
الناس، فدمر الله ديارهم بمن فيها: ﴿يَرْجِعُ
مَرْصَرًا عَاتِيَةً﴾ ١ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ
وَتَمْنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا [الحاقة: ٦-٧].

وفي إسناد الأخذ إلى الرجفة والصيحة
وعذاب يوم الظلة تهويل لما أنزله الله
بالكافرين المكذبين رسلهم وكيف كان
عقابهم، ومبالغة في تصوير المعنى الذي لا
يخفى أثره في النفوس^(٤).

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٣٢٢/١٠، تفسير
القرآن العظيم، ابن كثير ٤٠٢/٣، التحرير
والتنوير، ابن عاشور ٢٤٧/٢٠، التفسير
القرآني للقرآن ٤٣٣/٥، التفسير المنير،
الزحيلي ٢٤١/٢٠.

(٤) انظر: خصائص التعبير القرآني وسماته
البلاغية، عبد العظيم المطعني ٣٥٦/٢.

اقتران مدین و ثمود في القرآن

إن من حكم اقتران مدین و ثمود في السياق القرآني هو: في التشابه في الجنس حيث إنهم من العرب وفي أنهم متجاورون في البلدان وفي التشابه في الهلاك، واللعنة والمصير الواحد.

قال تعالى في قصة قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَيَقُولُ لَا يُجِزُّكُمْ شِقَاقَ أَن يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ۝٨١ وَأَسْتَفِرُّوْا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِرُوا إِلَيْهِ إِنَّا رَبُّ رَجِيمٍ ۝٨٢ وَذُو ۝٨٣ قَالُوا يَنْشَعِبُ مَا نُنْقِصُ كَثِيرًا مِّمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٨٤ قَالَ يَقُولُونَ لَا تُطِيعُوا أَمْرًا عَلَيْهِم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذُواهُمُ ظُرَافًا إِنَّ رَبَّكُمُ يَعْلَمُ ۝٨٥ وَتَقُولُوا أَجْعَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ نَعْمَلُوهَا مِّن يَّاتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ ۝٨٦ وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٨٧ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينَ ۝٨٨ كَانُوا لَمْ يَنْفِرُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ لَمَدٍ كَأَمْدٍ ثَمُودُ ۝٨٩﴾

[هود: ٨٩-٩٥].

وقال تعالى في قصة قوم صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٩٠ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينَ ۝٩١ كَانُوا لَمْ يَنْفِرُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ لَمَدٍ ثَمُودُ ۝٩٢ كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ ٱلثَمُودِ ۝٩٣﴾ [هود: ٦٦-٦٨].^(١)

وأوجه التشابه بينهم فيما يأتي:

١. التشابه في الجنس والكفر، وقطع الطريق.

إن الله تعالى قرن بين ثمود قوم صالح، ومدین قوم شعيب لأنهم كانوا من جنس واحد وهو أنهم من العرب، وكانوا جيرانهم في البلدان، ويشبهونهم في الكفر وقطع الطريق.

قال الإمام ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَمْ يَنْفِرُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ لَمَدٍ كَأَمْدٍ ثَمُودُ ۝٩٢﴾ [هود: ٩٥].

أي: كأن لم يعيشوا في دارهم قبل ذلك، ألا بعدا لمدین كما بعدت ثمود، وكانوا جيرانهم قريبا منهم في الدار، وشبهها بهم في الكفر، وقطع الطريق وكانوا عربا مثلهم^(٢).

٢. التشابه في الهلاك والسحق والبعد.

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ١١٩٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٩٨. وانظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٦٥، معاني القرآن وإعراجه، الزجاج ٣/ ٧٦.

قال تعالى في قصة قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمًا ۖ كَانُوا لَمُيْتُوا فِيهَا لَا يَتَذَكَّرُونَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ۖ﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

وقال تعالى في قصة قوم صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۖ﴾ [١١] وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمًا ۖ كَانُوا لَمُيْتُوا فِيهَا لَا يَتَذَكَّرُونَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ۖ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ الثَمُودِ ۖ﴾ [هود: ٦٦-٦٨].

وأما قوله: ﴿كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ فهو تشبيه: البعد الذي هو انقراض مدين بانقراض ثمود، ووجه الشبه: التماثل في سبب عقابهم بالاستئصال، وهو عذاب الصيحة، ويجوز أن يكون المقصود من التشبيه: الاستطراد بدم ثمود لأنهم كانوا أشد جرأة في مناوأة رسل الله، فلما تهيأ المقام لاختتام الكلام في قصص الأمم البائدة ناسب أن يعاد ذكر أشدها كفرا وعنادا فشه هلاك مدين بهلاكهم لأن هذه تربية لقوم نبي في حضرته، وتلك صاعقة كانت عذاب خزي لمشركين ظالمين معاندين

أنجى الله نبي كل منهما ومؤمنيهما قبلها^(١). روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم يعذب الله تعالى أمتين بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح، فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب أخذتهم من فوقهم^(٢).

والبعد أكثر ما يقال في الهلاك، نحو: ﴿بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥].

وكذلك يكون البعد بمعنى اللعنة، فيكون أبعد الله في معنى لعنة الله، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَن كَفَرَ بَعْدَ ثَمُودَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

وقوله تعالى ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْعَمِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

أي: الضلال الذي يصعب الرجوع منه إلى الهدى تشبيها بمن ضل عن محجة الطريق بعدا متناهيا، فلا يكاد يرجع له العود إليها، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/٤٦٥، معاني القرآن وإعراجه، الزجاج ٣/٧٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/٣٩٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/١٤٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٢٩٨، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/٣٩٢، تفسير المصايف ١٢/٧٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/٣٩٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٢٩٨.

يُنْعِمُ بِعِيدٍ ﴿٨٩﴾ [هود: ٨٩].

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا لَا يَفْقَهُوا فِيهَا﴾ «فيه

أربعة تأويلات:

أحدها: كأنهم لم يقيموا فيها، قاله ابن قتيبة.

والثاني: كأن لم يعيشوا فيها، قاله الأخفش.

والثالث: كأن لم ينعموا فيها، قاله قتادة.

والرابع: كأن لم يعمرها فيها، قاله ابن عباس^(٤).

أي: تقاربونهم في الضلال، فلا يبعد أن يأتيكم ما أتاهم من العذاب^(١)، والظاهر من السياق الكريم أن المراد الزمن وبعد المسافة، وهكذا قال قتادة: (إنما كانوا حديثي عهد قريب بعد نوح وئمود).

وقال الطبري: « ويحتمل وما دار قوم لوط منكم ببعيد، ولا مانع من إرادة ذلك كله^(٢) ».

٣. التشابه في المصير.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا لَا يَفْقَهُوا فِيهَا﴾ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٢].

أي: أهلك الذين كذبوا شعيباً فلم يؤمنوا به، فأبادهم، فصارت قريتهم منهم خاوية خلاء كأن لم يغنوا فيها، أي: الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها، أي: لم يعيشوا ولم ينزلوا ولم يقيموا ولم ينعموا، وأصله من قولهم: غنية بالمكان إذا أقمت به والمغاني: المنازل^(٣).

قال الماوردي عند تفسير قوله عز وجل:

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٠٩، غريب القرآن، السجستاني ص ١٢٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٣٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ٥٦٩/١٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٦٩/١٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٦٠/٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٢٦٣/٤.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢٤١/٢.

موسى عليه السلام في مدين

تناول القرآن الكريم قصة موسى في مدين من خلال المحاور الآتية:

أولاً: خروج موسى عليه السلام إلى مدين وأسبابه:

ذكر القرآن الكريم قصة خروج موسى عليه السلام من مصر إلى مدين هارباً من فرعون وملائه بسبب قتل القبطي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ١٧ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ١٨ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أَتُرِيدُ أَنْ تُقَاتِلَنِي كَمَا قَاتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ١٩ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَّى إِنَّكَ أَلَمَلًا يَا تَمْرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢١﴾ [القصص: ١٥-٢١].

يقول تعالى مخبراً عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي، إنه أصبح في المدينة خائفاً من معرة ما فعل يترقب، أي: ينتظر ويتوقع ما يكون من ذلك الأمر، ثم إنهم طلبوه وبعثوا وراءه ليحضروه لذلك، فخرج موسى من مدينة فرعون خائفاً من قتله النفس أن يقتل به بعد ما أخبره ذلك الرجل بما تماليح عليه فرعون ودولته في أمره، وخرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قبله بل كان في رفاحية ونعمة وورثاسة، فخرج منها خائفاً يترقب أي: يتلفت، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من فرعون وملئه (١).

واتجه موسى عليه السلام جهة مدين تاركا مدينة فرعون؛ لأنه كما وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة؛ لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام، وهو كان من بني إسرائيل من ولد يعقوب بن إبراهيم (٢).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٤٨/١٩، معالم التنزيل، البغوي ١٩٩/٦، الكشف، الزمخشري ٣٩٩/٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٨١/٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٦٦/١٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٣/٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٤٨/١٩، تفسير السمعاني ١٣٠/٤، معالم التنزيل، البغوي ٥٢٨/٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ١٧٤/٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٨٣/٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٣/٦، لباب التأويل، الخازن ٣٦١/٣، محاسن التأويل، القاسمي ٥١٧/٧.

إلى ربه، مستسلمة له، متطلعة إلى هداة: «عسى ربي أن يهديني سواء السبيل»^(٢).

وكانت هذه هجرة نبوية تشبه هجرة إبراهيم الخليل عليه السلام إذ قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقد ألهم الله موسى عليه السلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها نبيا يبصره بأداب النبوة، ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجه ولا من سيجد في وجهته كما دل عليه قوله ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٣).

ثانياً: موسى عليه السلام عند ماء مدين وقصته مع الفتاتين:

بين القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام عند ماء مدين، وقصته مع الفتاتين في الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَنَّى يَدْعُوكَ لِتَجْزِيَنَا آبَرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ

خرج موسى عليه السلام فاراً بنفسه منفرداً حافياً لا شيء معه، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر، ولما رأى حاله وعدم معرفته بالطريق وخلوه من الزاد وغيره، فأسند أمره إلى الله تعالى وقال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

فقد كان عارفاً بالله تعالى عالماً بالحكمة والعلم الذي آتاه الله تعالى، وتوجه ناحية مدين، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان أيام وكان موسى لا يعرف إليها الطريق^(١).

قال سيد قطب - واصفاً حال موسى - في ظلال قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ «ونلمح شخصية موسى عليه السلام فريداً وحيداً مطارداً في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالى الحجاز. مسافات شاسعة، وأبعاد مترامية، لا زاد ولا استعداد، فقد خرج من المدينة خائفاً يترقب، وخرج منزعاً بنذارة الرجل الناصح، لم يتلبث، ولم يتزود ولم يتخذ دليلاً. ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٤٨/١٩، تفسير السمعاني ١٣٠/٤، معالم التنزيل، البغوي ٥٢٨/٣، أنوار التنزيل، البضاوي ١٧٤/٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٨٣/٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٣/٦، لباب التأويل، الخازن ٣٦١/٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٥/٢٦٨٥.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢٣٩/٧، الكشف، الزمخشري ٤٠٠/٣.

عَلَيْهِ الْفَقَصَ قَالَ لَا تَخَفْ فَبَوَّتَ مِنَ الْقَوْمِ
الْقَلِيلِينَ ﴿٢٥﴾ [القصص: ٢٣-٢٥].

وجد موسى جماعة كثيرة من الناس على ماء مدين وهم يصفون حال المجتمع الذي يعيشون فيه، يشرب الأقوياء أولاً من الماء الصافي ويسقون أنعامهم ومواشيهم، ثم يشرب الضعيف بقية الماء وهذا شأن الضعيف مع القوي دائماً^(١).

ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تمنعان غنمهما من ورود الماء مع الرعاة الآخرين، ثلثا يؤذيا وتختلط أغنامهما مع غيرها، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما، فسألهما: ما شأنكما وما خبركما لا تردان الماء مع هؤلاء؟ قالتا: لا نسقي غنمنا، أي: لا نتمكن من سقي الغنم إلا بعد فراغ هؤلاء القوم من السقي، وأبونا شيخ كبير هرم لا يستطيع الرعي والسقي بنفسه، مما ألجأنا إلى الحال التي ترى، وفي هذا اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما وتنبه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتتهما.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٤٨/١٩، معالم التنزيل، البغوي ١٩٩/٦، الكشف، الزمخشري ٣٩٩/٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٨١/٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٦٦/١٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٣/٦.

فسقى لهما غنمهما لأجلهما من بثر مغطى بصخرة، لا يطبق رفعها إلا عشرة رجال، ثم انزوى إلى ظل شجرة للراحة، فناجى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إني لمحتاج إلى الخير القليل أو الكثير وهو الطعام، لدفع غائلة الجوع، وفي الآية دلالة على أنه: سقى لهما في حر من الشمس، وعلى كمال قوة موسى عليه السلام، وعلى أنه رغم نعمة عيشه في بلاط فرعون كان مخشوشاً جلدًا صابراً.

ويؤيد هذا ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة بسنده عن عمر بن الخطاب: رضي الله عنه «أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين، وجد عليه أمة من الناس يسقون قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثته، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم»^(٢).

ثم فرج الله عن موسى عليه السلام بعد الشدة التي عاناها والرحلة الطويلة التي قطعها: فجاءته إحداها تمشي على استحياء قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا أي: لما رجعت المرأتان

(٢) انظر: صف ابن أبي شيبة، رقم ٣١٨٤٢، ٣٣٤/٦. قال ابن كثير في تفسيره ٢٠٤/٦: إسناد صحيح.

ثالثاً: مكث موسى عليه السلام في مدين سنين وأسبابه:

بين القرآن الكريم المدة التي مكث فيها موسى أنها ثمان أو عشر سنين وسبب ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ نَقُورٌ وَكَيْلٌ (٨) [القصص: ٢٦-٢٨].

ولكن بينت السنة المدة التي مكث فيها موسى في مدين في ما رواه سعيد بن جبير، قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت، فسألت ابن عباس، فقال: «قضى أكثرهما، وأطيهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال فعل» (٣).

وقال وهب بن منبه: لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم ١٨١/٣، ٢٦٨٤.

سريعا بالغنم إلى أبيهما استغرب وسألهما عن خبرهما، فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها، فجاءت إحداهما تمشي مشي الحرائر، مستحية، متخمرة بخمارها، سائرة وجهها بثوبها، ليست جريئة على الرجال، فقالت في أدب وحياء: إن أبي يطلبك ليكافئك على إحسانك لنا، ويعطيك أجر سقيك لغنمنا (١).

ولما وصل موسى عليه السلام إلى الشيخ الكبير، وأخبره عن قصته مع فرعون وقومه في كفرهم وطغيانهم، وظلمهم بني إسرائيل، وتآمرهم على قتله وسبب خروجه من بلده مصر، أمنه ودفع عنه الخوف، وقال له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تخف واطمئن وطب نفسا، فإنك نجوت من سطوة الظالمين، وخرجت من مملكتهم، ولا سلطان لهم في بلادنا، فاطمأن موسى وهدأت نفسه من القلق والخوف، وبدأ موسى عليه السلام حياة جديدة في مجتمع جديد (٢).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٤٨/١٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٨١/٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٦٦/١٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٣/٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٤٨/١٩، معالم التنزيل، البغوي ١٩٩/٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٨١/٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٣/٦.

والآية تدل على أنه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ما ينفي الزيادة على العشر، واعلم أن قوله: ﴿فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بعد قوله: ﴿وَفَنَّكَ فَنُونًا﴾ كالدلالة على أن لبثه في مدين من الفتون، وكذلك كان، فإنه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محنا كثيرة، واحتاج إلى أن أجر نفسه^(١).

أما سبب مكث موسى عليه السلام في مدين فهناك سبب رئيسي هو: هروبه من مصر بسبب قتله للقبطي، بالإضافة إلى أنه عمل أجيرا مع شعيب عليه السلام وارتبط بعقد عمل مع أبي الفتاتين عندما طلبت إحدى الفتاتين ذلك: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]؛ لأنه القوي على حفظ الماشية والقيام بشؤونها، المؤتمن الذي لا تخاف خيائته، ومصدر هاتين الصفتين ما شاهدت من حاله، قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: إنه رفع الصخرة التي لا يطبق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف علي الطريق، فاقدني لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه.

مصاهرة موسى لشعيب: قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ

أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَنتَى عَلَّه أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِجٍّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: إن شعيب اقتنع بأن موسى رجل قوي أمين، فقال له: أريد مصاهرتك وتزويجك إحدى هاتين البنتين، فاختر ما تشاء، وهما صفوريا وليا، والمهر: أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين، فهو إليك، وإلا ففي الثماني كفاية.

وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو؟ على أقوال:

أحدها: أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين.

وقد ذهب إلى ذلك الجمهور من المفسرين - وهو المشهور عند كثير من العلماء - على أن الداعي أباهما هو شعيب عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهما ابتاه، وليس في ذلك شيء ياباه الدين، كما قال الإمام الرازي^(٢).

وقال القرطبي: «وأكثر الناس على أنهما ابتتا شعيب عليه السلام وهو ظاهر

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٦١/١٩، الكشاف، الزمخشري ٤٠٠/٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٥٠/٢٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٦/٦، البحر المحيط، أبو حيان ٢٩٨/٨، روح المعاني، الألوسي ٥٠٦/٨.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢٦٢/٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٥٠/٢٢.

اليهود، وللجزم بأنه شعيب الرسول عليه السلام جعل علماؤنا ما صدر منه في هذه القصة شرعا سابقا، ففرعوا عليه مسائل مبنية على أصل: أن شرع من قبلنا من الرسل الإلهيين شرع لنا ما لم يرد ناسخ^(٥).

القول الثاني: إنه كان ابن أخي شعيب، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وعن ابن عباس هو يثري صاحب مدين، رواه ابن جرير وذكر أن رجاله ثقات إلا شيخه سفيان بن وكيع، وعن الحسن: هو سيد أهل مدين، وعن ابن إسحاق: أنه حبر أهل مدين وكاهنهم، وعن أبي عبيدة: أنه يترون ابن أخي شعيب^(٦).

القول الثالث: كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة؛ لأنه قال لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ بِكُمْ بَعِيدٌ﴾، وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن، وهذا ما رجحه الإمام ابن كثير بقوله: وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمئة سنة، كما ذكره غير واحد، وما قيل إن شعيب عاش مدة طويلة، إنما هو - والله

القرآن^(١).

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن مالك بن أنس أنه بلغه أن: شعيبا هو الذي قص عليه موسى القصص، قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين^(٢).

وروى الطبراني عن سلمة بن سعد العنزي رضي الله عنه أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: (مرحبا بقوم شعيب وأختان موسى)^{(٣)(٤)}.

ورجح ابن عاشور بأنه شعيب النبي عليه السلام بقوله: « واسم المرأتين (ليا) و(صفورة)، وفي سفر الخروج: أن أباهما كاهن مدين، وسماه في ذلك السفر أول مرة رعويل ثم أعاد الكلام عليه فسماه يثرون ووصفه بحمي موسى، فالمسمى واحد.

وقال ابن العبري في «تاريخه»: يثرون بن رعويل له سبع بنات خرج للسقي منهما اثنتان، فيكون شعيب هو المسمى عند اليهود يثرون، والتعبير عن النبي بالكاهن اصطلاح؛ لأن الكاهن يخبر عن الغيب، ولأنه يطلق على القائم بأمر الدين عند

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٧٠.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٦٦.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، رقم ٦٣٦٤، ٥٥/٧.

وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ٦٢٢٩، ١٣/ ٤٩٧.

(٤) وانظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٤٠٧، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٩٧.

(٥) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٠١.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ١٠١، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/ ٣٣١، تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٨٦.

أعلم - احتراز من هذا الإشكال، ثم من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، كما سنذكره قريباً إن شاء الله، ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه ثيرون، والله أعلم^(١).

وممن رجح أن أبا المرأتين صاحب مدين المذكور في سورة القصص ليس شعيباً الشيخ عبد الرحمن السعدي حيث قال: «وهذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل وغاية ما يكون أن شعيباً عليه السلام قد كانت بلدته مدين وهذا قضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين، وأيضاً فإنه غير معلوم أن موسى عليه السلام أدرك زمان شعيب عليه السلام فكيف بشخصه ولو كان ذلك الرجل شعيباً لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضاً فإن شعيباً عليه السلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا لبتي نبينهم بمنعهما عن الماء وصد ماشيتهما حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما ويسقي

ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرى موسى عنده، ويكون خادماً له وهو أفضل منه وأعلى درجة، إلا أن يقال هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة، وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم والله أعلم^(٢).

وكذلك سيد قطب في الظلال حيث قال: «كنت أعتقد أن هذا الرجل هو شعيب. وقلت مرة: إنه قد يكون النبي شعيباً أو لا يكون وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو وإنما هو شيخ آخر من مدين. والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه، المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب - النبي - بين بقية قومه المؤمنين، ما سقوا قبل بتي نبينهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل! يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره، ولو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات^(٣)».

القول الرابع: التوقف عن الجزم بأنه شعيب أو غيره.

وهذا ما ذهب إليه ابن جرير الطبري

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٥.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٦٨٧.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٢٠٦.

في عقد واحد، ومشروعية الإجارة^(٢). قال ابن عاشور: «وفي أدلة الشريعة الإسلامية غنية عن الاستنباط مما في هذه الآية إلا أن بعض هذه الأحكام لا يوجد دليلاً في القرآن ففي هذه الآية دليل لها من الكتاب عند القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا.

وفي إذنه لابتتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها، وظهورها في مجامع الناس، إذا كانت تستر ما يجب ستره، فإن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرعنا ما ينسخه، وأما تحاشي الناس من نحو ذلك فهو من المروءة والناس مختلفون فيما تقتضيه المروءة والعادات متباينة فيه وأحوال الأمم فيه مختلفة وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف»^(٣).

رابعاً: قصة موسى عليه السلام في مدين من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

إن الآيات التي تبين أن قصة موسى عليه السلام في مدين من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى: ﴿وَمَا

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/١٠١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٤، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٦٨٦، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٠/٣٣١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/١٠١.

حين ذكر الاختلاف المذكور في الرجل الذي قص عليه موسى القصص، بعد أن ذكر الخلاف في أسماء بنات شعيب عليه السلام بقوله: «وكان اسم إحداهما صفورا، واسم الأخرى ليا، وقيل: شرفا كذلك، قال: اسم الجاريتين ليا، وصفورا، وامرأة موسى صفورا ابنة يثرون كاهن مدين، والكاهن: حبر عن ابن إسحاق، قال: إحداهما صفورا ابنة يثرون وأختها شرفا، ويقال: ليا، وهما اللتان كانتا تذودان.

وأما أبوهما ففي اسمه اختلاف، فقال بعضهم: كان اسمه يثرون، وعن أبي عبيدة، قال: الذي استأجر موسى يثرون ابن أخي شعيب عليه السلام، وقال آخرون: بل اسمه: يثرى، قال ذلك ابن عباس قال: الذي استأجر موسى: يثرى صاحب مدين، وقال آخرون: بل اسمه شعيب، وقالوا: هو شعيب النبي صلى الله عليه وسلم.

قال أبو جعفر: وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب^(١).

ويستدل بعض الفقهاء والمفسرين بهذه القصة على جواز مباشرة المرأة الأعمال والسعي في طرق المعيشة، ووجوب استحباتها، وولاية الأب في النكاح، وجعل العمل البدني مهراً، وجمع النكاح والإجارة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٥٦١.

كُنْتُ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتُنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا
كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا
فَنُطَاوِلُ عَلَيْهِمُ الْعُمُرَ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي
أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ
نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا
أَنَّهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
﴿٤٦﴾ [القصص: ٤٤-٤٦].

والثاوي هو: المقيم أي: ما كنت مقيما
في أهل مدين ^(١).

وهذه الآيات تبين الأحوال الثلاثة
العظيمة التي اتفقت لموسى عليه السلام:
وأولها: إنزال التوراة عليه حتى تكامل
دينه واستقر شرعه.

والثاني: مكثه وإقامته في مدين.

ثالثها: ليلة المناجاة.

ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم في
هذه الأحوال حاضرا لهذه الأحوال، وبين
الله تعالى أنه بعث محمداً صلى الله عليه
وسلم وعرفه هذه الأحوال فكان الإخبار
بها وبتفاصيلها من الدلائل الدالة على نبوته
صلى الله عليه وسلم ومعجزة من معجزاته
الشاهدة بصدق رسالته من غير أن يكون
حاضرا أو شاهداً أو مقيماً في مدين مع

موسى صلى الله عليه وسلم ^(٢).

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه
الآيات: « يقول تعالى منبها على برهان نبوة
محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر
بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد
وراء لما تقدم، وهو رجل أُمي لا يقرأ شيئا
من الكتب، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من
ذلك، وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى
من أولها إلى آخرها، وكيف كان ابتداء إحياء
الله إليه وتكليمه له وما كنت بجانب الغربي
إذ قضينا إلى موسى الأمر، يعني: ما كنت يا
محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله
موسى من الشجرة التي هي شرقية على
شاطئ الوادي، وما كنت من الشاهدين
لذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى
إليك ذلك، وأرسلك إلى الناس رسولا؛
ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول
عهدها، ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه
إلى الأنبياء المتقدمين » ^(٣).

فالإخبار عن الغيب من دلائل نبوة محمد
صلى الله عليه وسلم ومن معجزاته الباهرة
الدالة على صدق نبوته، لأنه صلى الله عليه
وسلم ما طالع الكتب، ولم يتلمذ لأحد،
ولم يكن حاضرا معهم، فإخباره بهذه القصة

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/٦٠٤، أنوار
التنزيل، البيضاءي ٤/١٧٩، لباب التأويل،
الخازن ٣/٣٦٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٦/٢١٥.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/٥٨٥، معاني
القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/١٤٧، التفسير
الوسيط، الواحدي ٣/٤٠١، مفاتيح الغيب،
الرازي ٢٤/٦٠٣.

[يوسف: ٣].

إلى غير ذلك من الآيات^(١).

وفي الإخبار بالغيب من قصص الأنبياء السابقين عليهم السلام إيناس لصاحب الرسالة المحمدية بأخبار إخوانه من المصطفين الأخيار، فقد كانت تلك الأخبار الصادقة غيباً لم يشاهدها محمد ولا يعلمها هو ولا قومه، ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم مقيماً بين أصحابها حتى يخبر قومه بها ولم يتعلمها من غيره ولكن الله تعالى هو الذي أوحى بها لمحمد صلى الله عليه وسلم وأرسله إلى الناس رسولا، وجعل هذه الإخبار دليلاً على صدق نبوته، فقد جاءت هذه الأحداث التي جاء القرآن الكريم بقصصها، صادقة وثابتة في الصادق من أخبار النبيين في كتبهم التي يتداولها أهل الكتاب، ولم يتناولها التحريف^(٢).

الطويلة من غير تحريف ولا غلط، إعجاز، ومن أوضح الأدلة على أنه صلى الله عليه وسلم رسول كريم، وإن كانت المعجزات الباهرة الدالة على ذلك أكثر من الحصر؛ ليبين بذلك صدق نبوته، لأنه أُمِّي لا يكتب، ولا يقرأ الكتب، ولم يتعلم أخبار الأمم وقصصهم، فلولا أن الله أوحى إليه ذلك لما علمه، كما قال تعالى عن إخباره بغيب آخر يتعلق بمريم وما حصل لها في قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ نَأْتِهِمْ بِآيَاتٍ مِمَّا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

أي: فلولا أن الله أوحى إليك ذلك لما كان لك علم به، وقوله تعالى بعد ذكر الإخبار بالغيب عن الأنبياء والمرسلين: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقوله أيضاً: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِذِي قُوَادِكْ﴾ [هود: ١٢٠].

وقوله تعالى بعد تمام قصة يوسف بطولها وأحداثها: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾ [٢].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٩٤/٤.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ١٤٠.

الدروس المستفادة من قصة مدين

يمكن بيان الدروس المستفادة من قصة مدين في القرآن من خلال النقاط الآتية:

أموال الناس، وإذا كان سرقتهم في المكاييل والموازين، موجبة للوعيد، فسرقتهم - على وجه القهر والغلبة بقطع الطريق وأخذ العشور- من باب أولى وأحرى.

٥. حرمة بخس الناس في جميع حقوقهم المادية: كالكيل والوزن وأجور العمال، وأسعار البضائع ونحو ذلك، وحرمة بخس الناس في حقوقهم المعنوية: كحق التأليف والمبتكرات والشهادات العلمية ونحوها.

٦. حرمة السعي بالفساد في الأرض، بأي نوع من الفساد، وأعظمه تعطيل شرائع الله تعالى والصد عن سبيل الله بمنع الناس من التدين والالتزام بالشرعية ظاهراً وباطناً، والسعي في الأرض بالمعاصي، لاسيما البلاد التي طهرها الله بالإسلام وأصلحها بشرائه.

٧. حرمة التلصص وقطع الطرق وتخويف المارة.

٨. أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله، ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿يَقْنِيتَ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ﴾ ففي ذلك، من البركة، وزيادة الرزق ما

١. إن دعوة الرسل عليهم السلام واحدة في العقيدة؛ إذ كلها تقوم على أساس التوحيد لله تعالى والطاعة الخالصة له سبحانه، وأن ذلك أول ما يبدؤون به أولاً، ثم بعد ذلك الأهم فالأهم.

٢. إن وظيفة الرسل عليهم السلام، وستهم في إرادة الإصلاح العام والشامل بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها ويدفع المفساد وتقليلها ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

٣. إن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه وبذلك يكون قد أدى الواجب الذي عليه^(١).

٤. حرمة نقص الكيل والوزن، وأن نقص المكاييل والموازين من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٩.

بنقيض ذلك، وكان سببا لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: فلا تسبوا إلى زواله بفعلكم.

١٦. المال الذي يرزقه الله الإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار، ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون، سواء وافق حكم الله، أو خالفه.

١٧. التهريب بأخذات الأمم، وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

١٨. الحياء من الرجال الأجانب، وأن ذلك سنة المؤمنين من عهد قديم، وليس كما يقول المبطلون هو عادة جاهلية، فبتنا شعيب عليه السلام نشأنا في دار النبوة والطهر والعفاف وغطت إحداهما وجهها عن موسى حياء وتقوى.

١٩. تجلى كرم شعيب عليه السلام ومروءته

٩. ليس في التكالب على الأسباب المحرمة من المحق، وضد البركة (١).

١٠. لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض، كما لا يصح إيمان عبد يؤمن ببعض ما أنزل الله تعالى على رسله ويكفر ببعض.

١١. مشروعية الدعاء وسؤال الله تعالى الحكم بين أهل الحق وأهل الباطل؛ لأن الله تعالى يحكم بالحق وهو خير الحاكمين.

١٢. التحذير من الطغيان، وهو الإسراف في الشر والفساد، فإنه موجب للهلاك والدمار في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

١٣. تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه إذ كذبت قبل قريش ثمود وغيرها من الأمم كأصحاب مدين وقم لوط وفرعون.

١٤. بيان سنة بشرية وهي: أن الظلمة والمتكبرين يجادلون بالباطل حتى إذا أعياهم الجدل وأفحموا بالحجج بدل أن يسلموا بالحق ويعترفوا به ويقبلوه، فيستريحوا ويريحوا، يفرعون إلى القوة بطرد أهل الحق ونفيهم أو إكراههم على قبول الباطل بالعذاب والنكال.

١٥. الجزاء من جنس العمل، فمن بخس أموال الناس، يريد زيادة ماله، عوقب

(١) انظر: المصدر السابق.

وشهامته في تطمين موسى وإكرامه وإيوائه.

٢٠. بيان أن الكفاءة شرط في العمل، ولا أفضل من القوة وهي القدرة البدنية والعلمية والأمانة.

٢١. مشروعية عرض الرجل ابنته على من يرى صدقه وأمانته ليزوجه بها.

٢٢. مشروعية إشهاد الله تعالى على العقود بمثل: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

٢٣. فضيلة موسى عليه السلام بإيجار نفسه على شعب بطنه وإحصان فرجه ^(١).

٢٤. قصة موسى عليه السلام في مدين من دلائل نبوة محمد لأن الإخبار بالغيب من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، لأن الله نفى أن يكون النبي محمد في مدين حتى يخبر بهذه القصة بتفاصيلها مما يدل على أن القرآن كلام الله تعالى.

موضوعات ذات صلة:

شعيب عليه السلام، موسى عليه السلام، عاد، ثمود

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٩، أيسر التفاسير، الجزائري ٤ / ٦٨.